

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 15 (2011) : 70 - 74
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

قراءة في بعض فصول كتاب الصحراء الكبرى وشواطئها
الكاتب والمؤرخ إسماعيل العربي

إبراهيم سعيود
قسم العلوم الإنسانية المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

رغم كل ما كتب حول الصحراء، وما قيل عنها، إلا أن هذا الفضاء الجغرافي والاجتماعي ما يزال يغري بالبحث والكتابة، وذلك لتعدد الموضوعات فيه. وأغلب الدراسات التي اهتمت بالصحراء هي دراسات فرنسية وهي لا تخلو من الدس والتشويه.

والكتاب الذي وضعه الأستاذ إسماعيل العربي حول الصحراء الكبرى يعتبر – في رأيي – أول دراسة جادة لباحث جزائري حول هذه المنطقة الجغرافية.

وعليه فإن مداخلتي التي أقدمها للمشاركة في ملتقى "الإنسان والصحراء الكبرى قراءات تاريخية واجتماعية" هي قراءة لكتاب "الصحراء الكبرى وشواطئها" للكاتب والمؤرخ الجزائري إسماعيل العربي، وتعد هذه القراءة مساهمة مني في التعريف بما نشر من دراسات حول الصحراء.

المؤلف[1]: هو إسماعيل العربي[2] المولود في شهر أكتوبر من سنة **1919**م، ببني وغليس بوادي الصومام بالقبائل الصغرى، نشأ في ظروف كان الشعب الجزائري يعاني فيها ويلات الاستعمار الفرنسي الغاشم، حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، ثم انتسب إلى زاوية سيدي موسى الوغليسي، فكان مداوما على حضور حلقات دروس الفقه والنحو وعلم التوحيد.

شدّ الرحال إلى قسنطينة ليزيد من اكتساب العلم والمعرفة، فكان مقصده الجامع الأخضر[3] حيث نهل من معارف العلامة عبد الحميد بن باديس، ثم أكمل نضجه على يد الشيخ الفضيل الورثلاني[4].

كان لأسفاره ورحلاته للغرب الأوروبي والشرق الإسلامي أثرا في تحصيله العلمي والاحتكام لأهل العلم والمعرفة، عاد إلى الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية ليلتحق بجمعية العلماء المسلمين بعد فقدان زعيمها الشيخ عبد الحميد بن باديس، أسندت له مهمة الإشراف على لجنة

التعليم الحر من طرف الشيخ البشير الإبراهيمي، كما تولى إدارة مجلة إفريقيا الشمالية، هاجر إلى المملكة الليبية على عهد ملكها إدريس السنوسي، فتولى إدارة مكتب رئاسة الحكومة ببنغازي، سافر بعد ذلك إلى لندن فعمل في هيئة الإذاعة البريطانية، ومنها إلى أروقة الأمم المتحدة في دوائرها بجنيف في سويسرا، لم يطب له المقام طويلا في سويسرا، فعاد إلى الجزائر، حيث تفرّغ للكتابة والتأليف.

مؤلفاته:

كانت ثقافة الأستاذ إسماعيل العربي بمثابة الدافع والحافز للإنتاج العلمي، وتزويد المكتبة الجزائرية، والعربية والأجنبية بالدراسات القيّمة في التاريخ، والثقافة، والسياسة، والأدب، وكلها أعمال عبرت عن رؤية موضوعية في تدوين الآثار، والأحداث التي عايشها وعاصرها، أو تلك التي سبقت عصره، والتي تناولتها المصادر المختلفة.

- **الإسلام والتيارات الحضارية في شبه القارة الهندية، الدار العربية للكتاب. بيروت. 1985. ص.ص. 458.**
- **تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر، ش.و.ك. الجزائر. 1986. ص.ص. 346.**
- **التعاون الاقتصادي للتنمية في نطاق المنظمات الدولية، وزارة الثقافة. دمشق. 1972. د.م.ج. الجزائر. 1979. ص.ص. 413.**
- **التكتل والاندماج الإقليمي بين الدول المتطورة، ش.و.ن.ت. الجزائر. 1974. ص.ص. 259.**
- **التنمية الاقتصادية في الدول العربية في المشرق، ش.و.ن.ت. الجزائر. 1974. ص.ص. 357.**
- **التنمية الاقتصادية في الدول العربية في المغرب، ش.و.ن.ت. الجزائر. 1974. ص.ص. 293.**
- **المدن المغربية، م.و.ك. الجزائر. 1984. ص.ص. 351.**
- **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر، ش.و.ن.ت، الجزائر. 1982, ص.ص. 350.**
- **المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ش.و.ن.ت، الجزائر. (دون تاريخ), ص.ص. 324.**
- **هيئة الأمم المتحدة والتنمية الاقتصادية في البلدان المتطورة، دار الآفاق، بيروت. 1972، ص.ص. 343**
- **الإسلام في مجده الأول، م.و.ك. الجزائر. 1984، ص.ص. 391.**
- **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب (تحقيق) م.و.ك، الجزائر. 1989، ص.ص. 169.**

المناسبة التي ألّف فيها هذا الكتاب:

طرحت هيئة الإذاعة والتلفزيون الجزائرية فكرة للتعريف بالصحراء الجزائرية، فاقترحت على الباحث إسماعيل العربي إلقاء سلسلة من الحاضرات تسلط الأضواء على الصحراء، بهدف مقاومة التخلف في المناطق النائية، ولتحقيق هذه الغاية بحسب ما ورد في الكتاب على لسان مؤلفه، قرر القيام برحلة في الصحراء، أفضت به إلى عدد من مدنها وواحاتها بما في ذلك بوسعادة وسوف وتوقرت والجلفة وورقلة ووادي مزاب وبسكرة وتمنغست ثم تلنها رحلة إلى مالي والنيجر، أما الصحراء الليبية فقد عرفها وتجول فيها أثناء إقامته في تلك البلاد.

وكان هدف الباحث من وراء هذه الرحلات، استنطاق العقول، وربط الحوار مع المثقفين والطبقة المستنيرة من سكان الصحراء، والتوثيق من مصادرها وتراثها والكتابة عن هذا الفضاء.

يذكر الكاتب، أنه خلال انعقاد ملتقى الفكر الإسلامي في تمنغست سنة 1979، تعرّف على السيد والسيدة كورنوفان (Cornevin) مؤلفا كتاب "تاريخ إفريقيا"[(5)] وأفضى بهم اللقاء إلى الحديث عن الموضوعات المتعلقة بالدراسات الصحراوية، وأن ظهور باحثين من أبناء الصحراء سوف يكون عاملا يساعد على تلافي النقص في هذه الدراسات.

محتوى الكتاب:

الكتاب موضوع في 413 صفحة، صادر عن المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر سنة 1983 ويشتمل على مقدمة وستة عشر فصل، إضافة إلى خرائط تمثل الممالك الصحراوية القديمة كمملكة مالي وحدود توسعاتها إلى نهاية القرن الرابع عشر، ومملكة صنغاي وحدود توسعاتها إلى بداية القرن السادس عشر، وتضمن أيضا ملاحق تشمل شجرة نسب البربر من سكان الصحراء عند ابن خلدون وابن حزم. إضافة إلى قائمة من المصادر والمراجع المنتقاة.

قدم في الفصل الأول دراسة طبيعية للصحراء الإفريقية، شملت الحدود الجغرافية للصحراء الكبرى وامتداداتها الواسعة من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي تضاريسيا ومناخيا.

وخصص الفصل الثاني للحديث عن الجمل مطية الرّحل من العرب والبربر، مركزا على العلاقة التكاملية بين والإنسان الصحراوي والجمل، إضافة إلى ذلك فإن البدوي يملك إلى جانب حواسه الخمس حاسة سادسة سمّاها الكاتب "حاسة الاتجاه" وهي عبارة عن شعور قوي اكتسبه من طول الممارسة يهديه ويرشده في طريقه، كما يملك البدوي أيضا صفاء الذاكرة.

ويتحدث الكاتب في هذا الفصل أيضا عن قبائل الصحراء الكبرى، وهي كثيرة، ويشير إلى قبيلتين كبيرتين مختلفتين من حيث الأصل والعرق، إحداهما عربية تمتد حتى سفوح جبال الأطلس الصحراوي، وهي قبيلة الشعانبة، والقبيلة الأخرى أو بالأحرى مجموعة القبائل هي الطوارق البربرية التي لا تزال في نظره بعيدة عن التأثير الحضاري العربي[(6)].

وأمّا الفصل الثالث فخصصه الكاتب للتجارة في الصحراء، بدءا بالتجارة الحيوانية، وكيفية استغلال مواردها من لحوم وألبان وصوف ووبر، وكيف كان الجمل بمثابة السفينة التي تنقل البضائع المختلفة، ما أدى إلى تشكيل شبكة من المواصلات المعقدة بين الصحراء والتل، والصحراء والعواصم الحضارية الكبرى. (7)

وتناول الكاتب في الفصل الرابع من كتابه موضوعا في غاية الأهمية، حيث ركز فيه على الدور الذي قام به المستكشفون قبل وأثناء القرن التاسع عشر للتمهيد للظاهرة الاستعمارية، وتمزيق المناطق الواقعة جنوب الصحراء.

لقد ركز الكاتب على القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، واعتبرهما بداية للتوغل الأوروبي في إفريقيا وصحرائها، إلا أن الوقائع تقول غير ذلك فالتواجد الفرنسي كظاهرة استعمارية في غرب إفريقيا وتحديدا في السنغال يعود إلى سنة **1368**.(8)

أود أن أذكر هنا تعقيبا على ما ذكره إسماعيل العربي بخصوص الشركات الفرنسية المتواجدة في سواحل غرب إفريقيا، – والتي كان لها امتداد في الصحراء – قد بلغ سبع شركات، عدا التجار الخواص وهذا إلى غاية **1758**(9)

ما يمكن استنتاجه مما سبق أن اختلاف أغراض المستكشفين والرواد في الصحراء الكبرى كان تبعا لاختلاف جنسياتهم، فمنهم من اندفع وراء المغامرة بحثا عن المجهول، ومنهم من كان هدفه جمع المعلومات العلمية عن طبيعة الصحراء وسكانها، ومنهم من كان يعمل لحساب حكومته ويعد التقارير الممهدة للظاهرة الاستعمارية.

أن الفصل بين الدين والدولة الذي نصت عليه القوانين السياسية في فرنسا منذ الثورة الفرنسية، لم يطبق فيما وراء البحار، لأن الكنيسة والإدارة اشتركتا في العمل لتحقيق غاية واحدة، بل وجدت الكنيسة في الإدارة الاستعمارية أداة لنشر المسيحية.

الهوامش:

(1) حول حياة إسماعيل العربي راجع الدراسة القيّمة التي قدمتها الدكتورة صغير مريم في الملتقى الوطني الأول حول المدرسة التاريخية الجزائرية، والتي نشرت في مجلة المدرسة التاريخية الجزائرية، الصادرة عن اتحاد المؤرخين الجزائريين، الطبعة الأولى سنة 1998، ص.ص. 105–113.

(2) اسمه الحقيقي محند أعراب.

(3) كان الجامع الأخضر منارة للعلم والفكر والمعرفة، ومنه انطلقت الحركة الإصلاحية التي قادها الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمة الله عليه منذ 1913م.

(4) ينتسب الشيخ الفضيل إلى بني ورثيلان بنواحي سطيف، وهو من مواليد 6 فيفري 1900، كان رحمة الله عليه مكلفا بالتدريس من قبل الشيخ بن باديس، ثم انتدب ممثلا لجمعية العلماء المسلمين في فرنسا، التحق في بالأزهر طالبا للعلم في كلية أصول الدين، أسس للجمعية مكتبا بالقاهرة سنة 1949، توفي في 12 مارس 1959، نقل رفاته ودفن بمسقط رأسه في 12 مارس 1987م.

(5) Cornevin (R et M), Histoire de l’Afrique des origines à la deuxième guerre mondiale. De la deuxième guerre mondiale à nos jours 2 Tomes, éd, Payot. Paris 1974.

(6) حول الرحل في شمال إفريقيا اعتمد الكاتب على الأبحاث التي قام بها الباحث الألماني جيرهارد ميرنر (P. G. Merner) والتي نشرها في كتاب سمّاه "الرحل" حيث قسم الكاتب أي مرنر الرّحل إلى أربع فئات أساسية: رحّل الهضاب، ورحّل الصحراء، وأشباه الرحّل، ورحّل الجبال، والفئة الأخيرة تعيش بوجه خاص في جبال الأطلس بالمغرب الأقصى، وفي الشطوط التونسية، وهم يمارسون زراعة الحبوب، وتربية المواشي.

(7) نذكر أن شبكة التجارة الصحراوية كانت نشيطة قبل 1830، وبعد الاحتلال قامت الإدارة الاستعمارية آنذاك بتخريب العلاقات التجارية الصحراوية. ويذكر الكاتب أن الشبكة التجارية كانت تربط طوارق الهجار بتوات، ومنها طريق الهجار وأدرار والنيجر وغات وغدامس. وأما طريق القوافل الصحراوية الكبرى التي ازدهرت في العهد الإسلامي عبر الصحراء فقد كانت أهم محطاتها تومبوكتو وفاس وسجلماسة وقلعة بني حماد والقيروان والقاهرة وبغداد، وبواسطة هذه الشبكة من طرق القوافل، كانت الصحراء تتلقى منتجات العالم وتتبادلها بالعبيد والتبر.

(8) في سنة 1368 استطاع الفرنسيون إرساء قواعد تجارية في هضبة داكار، ومنها أنشئوا شركات امتدت حتى خليج غينيا، وفي نهاية القرن السادس عشر تم إنشاء شركة روان (Rouen) التي استمرت حتى عهد الكاردينال ريشليو الذي دعم هياكلها ماديا وعسكريا سنة 1626.

(9) من الطبيعي أن المراسيم التي سنها الكاردينال ريشليو كانت النواة الأولى لإنشاء إدارة فرنسية حقيقية في المنطقة التي أشرف عليها الإداريون الفرنسيون، ومن أبرزهم أندري برو (André BRUE) ولويس فيدرمان (Louis FEDERMAN) لالأول مدني والثاني عسكري وقد عملت الإدارتان على إخضاع سكان الصحراء أو القبائل الصحراوية وجمعهما في مستوطنات على غرار ما قامت به بريطانيا في كينيا